**جامعة وهران 2**

**كلية العلوم الاجتماعية**

**قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا**

**شعبة: علم الاجتماع**

**وحدة: التغير الاجتماعي**

**أ.د عمار يزلي**

**الدرس 5**

**النظريات التطورية**

**1/ التطورية: من الفلسفة إلى المجتمع**

من خلال ما سبق بشأن بعض نظريات التغير التي لخصناها في ثلاث اتجاهات عامة: خطي، دائرية ولولبية، يمكن الآن أن نتحدث عن بعض النظريات التي تناولت التغير من باب التطور..Evolution، مع العلم أن التطور هو تغير لكن التغير ليس هو دائما تطورا.

مفهوم التغير والتطور هو الآخر خضع لنفس القانون: هو الآخر تغير وتطور بتطور التاريخ والفهم ومقتضيات اللحظة الزمنية التي هي تراكم معرفي تاريخي على مر الحقب.

لاحظنا على عجل كيف تناول بعض الفلاسفة الأقدمين مفهوم التغير وكيف نظروا إلى التغير وكيف عبروا عنه، كون الفلاسفة الأوائل كانوا أميل لفهم سببية الوجود والوجود معا. فالتساؤلات الإنسانية حول ماهية وجوده في هذا الوجود الموجود هو لب الأسئلة الفلسفية التي جاءت فيما بعد من خلال البعض عن أسرار التغيرات والتحولات بدء من الذات والمحيط والفضاء والفلك. لهذا كان التقويم الفلكي وتنظيم الشهور والأيام محاولة لتنظيم التغير الملاحظ وتقنينه بما يسمح للإنسان من السيطرة جزئيا على نشاطه اليومي، لهذا أيضا كان علم الفلك رائجا ورائدا من البداية، باعتبار السماء والكواكب مرافقة للإنسان دوما في الصحاري والبراري والبحار، لهذا نجد كثيرا من الديانات ألهت بعض النجوم وعبدتها لما لأهميتها في قيادة الناس وإرشادهم في طرقهم وأسفارهم.

التغير، ارتبط إذن بالتطور: التطور الزمني وما يصاحبه من تحولات طبيعية أو من فعل الإنسان وعمله. وعليه، نجد الفلسفة في مرحلة متطورة من عمرها، تبدأ مع القرن ال16 في دراسة تطور المجتمعات ليس من منظور تاريخي فقط، بل عبر دراسات جامعة أحيانا ما بين عدة تخصصات، ذلك أنه إلى هنا، لم تكن كل التخصصات المعروفة حاليا موجودة ولا التخصصات المعروفة الأخرى كالتاريخ معروفة بنفس المناهج الحالية الأكثر دقة وصرامة معرفية.

لناء على هذا وعلى إدراك الفلسفة والفلاسفة في مرحلة من تطور الفكر والمجتمع، والمتمثل في الانتقال من العهد اللاتيني الذي يمثل نهاية الحقبة الرومانية وبداية العصور الوسطى ثم مرحلة الإقطاع فالرأسمالية، أن المجتمعات والحضارات المتعاقبة تدو وكأنها تتغير وتتطور بناء على قوانين تحكمها، ما كان لهم أن يلاحظوا ذلك إلا بعد مرور عدة ألاف من السنوات كتجربة يمكن الاعتماد عليها في التحليل والدراسة. وهو منهج متعارف عاليه عليه اليوم في التجارب العلمية والإنسانية، حيث أنه على الباحث أن يحدد مدة قد تطول أو تقصر لدراستها كنموذج، وكلما طالت المدة أو العينة كلما كانت النتائج أشمل وأدق إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل المتغيرات أو معظمها.

إذن، وعبر ما لا يقل عن 3 آلاف سنة من الزمن، كانت فلاسفة المجتمع الأوربي، قد بدؤوا ينتقلون أو بعض منهم إلى "الفلسفة الاجتماعية" و"فلسفة التاريخ"، بعد أن بدأت عدة علوم وتخصصات تنفصل وتخرج من تحت عباءة الفلسفة باعتبارها أم العلوم.

الفلسفة الاجتماعية إذن هي مرحلة من مراحل تطور الفلسفة نفسها، كانت نتاجا لحقبة بدا فيها الفيلسوف يُسائل الأرض قبل السماء، ويبحث في الإنسان وعلاقته بالآخرين وبمحيطه أكثر ما يساءل عن ماهية الوجود والموجود.

من هنا، كان بروز ما نسيمه بالنظريات التطورية[[1]](#footnote-2) والتي تدخل ضمن نظيرات التغير والتطور الخطي والدائري واللولبي كما أسلفنا الذكر.

**2/ داروين والدروينية الاجتماعية**

شكلت الاكتشافات العلمية وظهور الطباعة واختراع المجهر طفرة نوعية في التطور التاريخي سمح بإحداث قفزة نوعية جديدة وحاسمة في التاريخ الأوروبي والإنساني كما كان الحال مع الاكتشافات العلمية في العصر الوسط في الأندلس والعراق خلال الحضارة الإسلامية، لاسيما في مجال الطب والرياضيات والهندسة والفلك.

اكتشاف المجهر، سمح لأول مرة باكتشاف حياة جديدة وكائنات لم تكن معروفة ولا مرئية رغم أنها كانت هي السبب المباشر أو المادي، في المرض والوفاة أو في الصحة: البكتيريا وكل المجهريات بما في ذلك الفيروسات. هذا الاكتشاف أحدث ثورة حتى على مستوى الأفكار والقناعات التي رسخها بعدها ما سمي "بالعلم".. العلم المادي القابل للتجريب والتدقيق والتكرار.

"داروين"[[2]](#footnote-3)، مكتشف الطفرات والتحولات والتغيرات التي تحدث تلقائيا على كائنات حية: ذباب، حشرات، فراشات، سرعان ما اكتشف ما سماه ب"الوراثة" التي تحدث عن طريق التلاقح والتزاوج والتوالد، ولكن أيضا "الحوادث" العرضية "Les accidents" الجينية التي لا تفسير لها والتي ينشأ عن تزاوج بين كائن ذكر وأنثى ولكن الناتج يكون "متغيرا" و"مختلفا" عن الاثنين..

من هنا، ومن ملاحظة تزاوج الحشرات، وتكاثر التنوع في التنوع الواحد أو الثنائي، أوصله أي فكرة "التطور والارتقاء"، و"البقاء للأصلح"(Sélection des plus aptes)، في سيرورة البحث عن التأقلم والحياة والتجدد والتكاثر والحفاظ على السلالة والجنس. من هنا، طرح فكرة التطور لدى الإنسان عبر ربط ذلك بتطور القردة، لكن مع ذلك لم يشر داروين يوما إلى أن الإنسان "تطور من قرد"، بل طرح فكرة التحولات التي تخضع لها كل الكائنات، ولم يتمكن من تقديم إجابة علمية شافية عن علاقة الإنسان بالقرد ومنه كانت ما سميت عنده بالحلقة المفقودة.

"شارل داروين" (Darwin)[[3]](#footnote-4)، إذن، لا يتحدث عن "تطور الأنواع" (Evolution des espèces)، بل تحدث عن "الاختلاف مع التبدلات" (Décadences avec modification) و عن :التكيف"Adaptation"، وهذا في كتابه "أصول الأنواع" 1859م.

هذا الاكتشافات، مع اكتشافات أخرى في مجال البيولوجيا والطب والعقارات والمصول، قلب موازين الفكر لدى الكثير من علماء الفترة من إيمان بالغيب واللاهوت على أنه المتسبب والمتحكم في المرض والدواء والموت، ليصبح بعد هذه الاكتشافات العديد من علماء المادة، يذهبون إلى الاقتناع أن المتسبب في المرض والموت أحيانا هو هذه الكائنات المجهرية وليس السماء. من هنا، فتح باب "الإلحاد" و وظهر سلطة "العلم" و"العلمية" (Le scientifique)، كسلطة وحيدة ذات صدقية وقابلية للتصديق وكل ما دونه فهو "غير علمي"، غير خاضع للعقل والرؤية والتجريب المخبري.

الداروينية العلمية هذه، تأثر بها العديد من "فلسفة التاريخ والمجتمعات" وهذا بدء من قرن الأنوار، القرن الذي نقل المجتمع الأوربي من نهاية عهد الإقطاع إلى بداية الثورة الرأسمالية انطلاقا من الثورة الفرنسية.

ـ يعتبر" Herbert Spenser"[[4]](#footnote-5) (1903.1857م)، ممثل الداروينية الاجتماعية في هذا المجال، جسد هذا في "نظريته العضوية" ضمن كتابه "Progress, its lows and causes" (التطور، قوانينه وأسبابه) ملخصا هذا التطور في "الانتقال" من "الانسجام إلى المعقد" (Homogénéité à l’Hétérogénéité)، وصولا إلى "التكامل" (L’intégration)، وهذا باعتباره يرى أن كل الأفعال تسير وفق "اتصال نسبي"، مما جعل نظريته توصف بنظرية "التطور فوق العضوي".

مراحل الانتقال عند "سبنسر" تشكل مسيرة من التطور التاريخي والمجتمعاتي بدء من مجتمعات الحياة البسيطة المعتمدة على القرابة العائلية والقبلية القروية، إلى المجتمعات المدنية المعقدة التي يجعل الرأسمالية أوجها، يلعب فيها البناء والوظيفة الداخلية في كل مجتمع الدور الأساسي في التغير والانتقال والتحول بفعل التفاعل، مما يجعل نظريته ضمن النظريات البنائية الوظيفية التي ستعرفها الدراسات الانثروبولوجية خاصة.

ـ ضمن هذا التوجه الخطي للتطور، يظهر "Lewis Henry Morgan"[[5]](#footnote-6) (1818/1881)، الذي يعتبر مؤسس "الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية"، يبدو أنه تأثر ب "إنجلز" في كتابه "أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة"[[6]](#footnote-7)، وهذا من خلال مؤلفه "المجتمع التقليدي" (Ancient society)، (La société archaïque) 1877م، هذا الأخير الذي هو الآخر يبدو متأثرا بأصل الأنواع لشارل داروين، خاصة وأن هذه النظريات وهؤلاء المنظرين عاشوا في نفس الفترة وهي منتصف القرن ال19م.

يذهب "لويس هنري مورغان"، هو الآخر إلى تقسيم التطور التاريخي للحضارة البشرية إلى 3 مراحل: مرحلة التوحش، المرحلة البربرية ومرحلة الحضارة.

مرحلة التوحش، يقسمها إلى مرحلة وحشية أولى وتتمثل في مرحلة الجني وبداية تشكل اللغة، ثم طور القطيع البشري، وما ظهر معه من زواج قرابي. ثم مرحلة التوحش الوسطي ويربطها "مورغان" باكتشاف النار والطهي وصيد السمك والنسب الأمومي والزواج المتعدد. وأخيرا مرحلة وحشية عليا تبدأ مع اكتشاف أدوات الصيد من رماح وأسهم وإنتاج أدوات الأكل الخشبية، ثم تربية المواشي بعد تذليلها، ثم المرحلة المبكرة من الزراعة فصناعة الخزف وبداية ظهور الكتابة واكتشاف الحديد..

كل هذه المرحلة، يختصرها "إنجلز" و"ماركس" ضمن التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية المشكلة لما تسمى عندهما في النظرية المادية الجدلية ب"المادية التاريخية" في "مرحلة المشاعية البدائية" (La communauté primitive)، أما المرحلة البربرية، فهي تمتد من ظهور المجتمع العبودي إلى سقوط العهد الإقطاعي. فيما تتمثل مرحلة "الحضارة" عنده في مرحلة الرأسمالية وما بعدها...

1. [https://www.cairn.info/les-theories-economiques-evolutionnistes--9782707147202-page-7.htm#](https://www.cairn.info/les-theories-economiques-evolutionnistes--9782707147202-page-7.htm)

   <https://e3arabi.com/%D8%B9%D9%84%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B7%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A9/> [↑](#footnote-ref-2)
2. <https://www.hominides.com/html/theories/theories-evolutionnisme.php> [↑](#footnote-ref-3)
3. <https://lejournal.cnrs.fr/articles/charles-darwin-de-lorigine-dune-theorie> [↑](#footnote-ref-4)
4. <https://www.persee.fr/doc/phlou_0776-5541_1898_num_5_17_1582> [↑](#footnote-ref-5)
5. <http://classiques.uqac.ca/classiques/morgan_lewis_henry/morgan_lewis_henry.html>

   Lewis Henry Morgan (1877), [The Ancient Society](http://classiques.uqac.ca/classiques/morgan_lewis_henry/ancient_society/ancient_society.html) **or Researches in the Lines of Human Progress from Savagery through Barbarism to Civilization**. First Published, 1877, London: MacMillan and Company. This edition is reproduced from the **First Indian Edition**, published bye Bharti Library, Booksellers and Publishers, Calcutta, 1944. Texte téléchargeable !

   [**La société archaïque**](http://classiques.uqac.ca/classiques/morgan_lewis_henry/societe_archaique/societe_archaique.html). (1877) Traduction française de l'Américain par H. Jaouiche, 1971. Paris : Éditions Anthropos, 1971, 653 pages. Présentation et Introduction de Raoul Makarius, ethnologue français. [↑](#footnote-ref-6)
6. <http://classiques.uqac.ca/classiques/Engels_friedrich/engels_friedrich.html>

   Friedrich Engels, [**L'origine de la famille, de la propriété privée et de l'État**](http://classiques.uqac.ca/classiques/Engels_friedrich/Origine_famille_moscou/Origine_famille_m.html) (1884). Traduction française, Les Éditions du Progrès, Moscou, 1976, 318 pp. Une édition réalisée par notre collaboratrice bénévole, Mme [Gemma Paquet](http://classiques.uqac.ca/inter/benevoles.php#Anchor-27666). Livre téléchargeable ! [↑](#footnote-ref-7)